دلال نساء».

قلت له:

ـ إنّها في خطر وقد تموت.

أجاب بقسوة العدوّ:

ـ لتمت. إنّ حياتها أرخص بكثير من الشّياه الّتي تسبّبت في ضياعها.

صدمتني شماتته. خرجت أجرّ خطواتي المخذولة وأنا أتساءل بدهشة المفجوع: هل هذا الرّجل هو حقّاً أبي؟ هل يمكن أن أُولد من صلب إنسان مات ضميره؟ أيّ أعذار يمكن أن أُسعفه بها وأُنقذ أُبوّته من الموت؟ لا حاجة بي إليه بعد الآن. لا حاجة بي إلى أُبوّة قاسية.

أحسستُ وأنا غارقة في كآبتي بوجوده يموت فيّ. لقد أتى غضبُه على كلّ شيء وقتل عاطفتي نحوه بالضّربة القاضية. شعرتُ وأنا أمسح دمعي بالخزي من كوني ابنته...

عند الباب التقيت بالأمين، كان هو أيضاً آتياً لإقناعه بضرورة المساعدة. قلت له: «لا فائدة».

استغرب الأمر وأصرّ على التحدُّث إليه، ولكنّه عاد بعد قليل مقهور الملامح يبحث عن معطفه ويعلن بعصبيّة طفل عن عزمه على الخروج إلى بيت جدّي. حاولت أمّي بصوتها الضّعيف أن تمنعه ولكنّه أصرّ على موقفه وانطلق خارجاً محاولاً أن يتحسَّس طريقه في الظلام والأنواء.

* * *

صار صراخ أمّي يمزّق سكون اللّيل ويكتم أنفاسي. بدأ شحوبها يخيفني. افترست الحيرة هدوئي وأنا أفكّر في شيء أفعله من أجلها.

نبشتُ في فكري عن أسرار الولادة والحياة، فلم يسعف ذاكرتي سوى ذلك الماء السّاخن الّذي كانت القابلة تدخل به إلى غرفة أمّي عندما ولدت عمّاراً.

وضعتُ الماء على النّار، ولم أكد أفعل ذلك حتّى سمعت صوتها الّذي صار يشبه الأنين يناديني:

ـ أحضري مقصّاً وعقّميه بالكحول.

قمت بتعقيم المقصّ ثمّ لففته في منديل نظيف وجعلته قريباً منها. أخبرتها بأنّي وضعت الماء فوق النّار فاستحسنت العمل.

بقيتُ أرقب عذابها بقلق العاجزين. أخذتْ تتحرّك في الغرفة جيئة وذهاباً... بعد فترة قصيرة استلقت على الفراش. ساعدتها في وضع الغطاء فوقها. رفعتْ يديها إلى فوق وأمسكت بعموديه المنتصبين خلف رأسها وفرجت ساقيها ثمّ طلبت منّي أن أضغط برفق على أجزاء معيّنة من بطنها.

أخذتْ بيديّ الصّغيرتين لتدلّني على مواقع الضّغط. تحسَّستُ حركة مسعورة داخلها. تخيّلت شدّة الألم الّذي تتحمّله بسبب ذلك.

كان وجهها الجميل قد صار بلون السّماء الدّاكنة وهي تحاول أن تكتم صراخها الضّائع وتحوّله إلى أنفاس عميقة تدفع بها الطفل إلى الدّنيا.

أمرتني بعد وقت قليل أن أخرج لإحضار الماء السّاخن وتهيئة ثياب الطّفل.

لم أكد أنزل الماء من فوق النّار حتّى تناهى إلى سمعي صراخٌ ملائكيّ. حملتُ الماء مسرعة إليها. وعندما دخلتُ فوجئت بالطفل إلى جانبها. كانت قد استطاعتْ خلال دقائق قليلة أن تقصّ الحبل السّرّيّ وتربطَ سرّة المولود وتضمّه إليها تحت الغطاء، مانحةً إيّاه زاداً لا ينضب من دفئها الأموميّ المقدّس.

(تونس)

دوائر رؤية

عبد السلام الشرقاوي

.. لم يكن في نيّتي أن أتوجّه إلى محطة الرّباط ـ المدينة، لكنّ تعبي المزمن جعلني أغيّر رأيي آخر دقيقة وأعزف عن فكرة ركوب التّاكسي المتوجّه نحو القنيطرة. خطوات، ثم وجدت نفسي في المحطّة وبالضّبط في قاعة المسافرين. اقتعدت كرسيّاً بلاستيكيّاً (الكرسي لم يكن مريحاً بالقدر الكافي، لكنّه.. على نحو ما.. يساعدني في العثور على شيء من الراحة). فكّرت في شراء الجريدة لأطّلع على الجديد اليوم.. لكنّ التّعب نفسه منعني.. فاشتغالي، منذ سنوات، مدرّساً ابتدائيّاً ولّد لديّ تعباً غدا يلازمني. مددت رجلي وسرحت من المكان ـ الفُنْتِ الذي يوجد به الكرسي، سرحت بعيني (داخل قاعة الانتظار) وحدّثت نفسي كصديق ودود، وقلت: «لأمارس هوايتي المفضّلة..». الجو في القاعة كان مناسباً لممارسة نوع من الحساب الذهني. وببلادة انطلقت عمليّة العدّ: «٢٥ مسافراً.. ٧ نساء.. الباقي رجال.. ٣ نساء فوق الثّلاثين.. ٤ نساء بجلابيّات.. ٥ كرفاتات.. ٣ جاكيتات جلد.. ١١ شارباً.. لحيتان.. رأس واحد غرب عنه الشّعر إلى الأبد..».

راقبت، بعض الوقت، فتيات ثلاثاً بعمر الزّهور.. إحداهن موازية لمقعدي.. راقبتها لأمرٍ بسيط هو أنّ لباسها يقول لي على نحو ما (وللآخرين ربّما!): «انظروا إليّ!». وإذْ كنت أفاضل بين ما تلبسه وكيف تلبس لم أجد غير عبارة لا أدري أين سمعتها أو قرأتها:

«Les filles d'aujourd'hui.. beaucoup de boutons et moins de finesse..».

لكني، لم أستسلم لمضمون هذه العبارة إلاّ بعض الوقت.. ذلك

أنّ نظراتي حاصرت إحداهنّ ـ تلك الّتي تجلس بجانب شابّ يقرأ جريدة بالفرنسيّة ويمرّر من حين لآخر يده على فخذه. أصبحت كمن يرشف حليباً باللّويزة: مرّة بعد مرّة يعود إليه. وربّما أحسّت هي الأخرى بالعيون المتلصّصة عليها، فتشاغلتْ بالنّظر إلى المارّين خارج القاعة (هكذا لتضيّعني!).. ثم (من المكان ـ القنت الذي يقابلها)وجدتُني (وبدون أن أتزحزح قدر بوصة) أدعوها إلى الجلوس في مقهى المحطّة الفوقي.. الدرجات الرخاميّة صعدناها معاً. هكذا وبدون أن ندع للخجل الّذي يُصطنع في مثل هذه المناسبات فرصته الذهبيّة، قلت لها اسمي.. لم تقل شيئاً بل طلبتْ لنفسها شاياً باللّيمون. وجاءني الجرسون بقهوة شكولاطيّة. بين رشفة وأخرى وجدت نفسي أسرح بخيالي.. بعيداً: من نافذة الغرفة.. كانت أشجار النّخيل تنتصب أمامي بخيلاء.. بينما كنّا ـ أنا وهي ـ متشابكي الأيدي.. كأنّنا نقول لبعضنا: «اليوم لنا والغد أيضاً». وبحسّي الآدمي.. وجدت ـ حينما كلّمتني عن المرأة الّتي تمشي على الرّصيف المقابل ـ أنّنا نمارس الهواية نفسها.. «شوف هذيك! الأنف نابت فين ولا كوپ فين!». «شوفي!» قلت لها: «زوجة فلان ترفع يدها دائماً وهي تتكلّم.. أنا لا أحب هذا النوع من النّساء..» قالت: «هذا رأيك..» ثم أردفت: «كلّ شيء يحدث هنا.. يناقش هنا..» وأشارت بأصبعها إلى سجّادة الغرفة.. ضحكنا، ثم تساقطت عليّ بجذعها ووشوشت في أذني شيئاً.. لم أصدّق.. لم أصدّق أنا!

سأصبح في يوم ما أبا.. ياه! قالت: «علينا أن نختار للمولود الجديد اسماً..». قلت: «.. من الآن فصاعداً!». نطقتها بحركة ممثّل مسرحي مقتدر.. «لكن، انتظري!». بحثت في الأسماء الّتي أعرفها فوجدتها مكرورة ورتيبة، حتّى أنا أحمل اسم جدّي الّذي مات في عزّ شبابه، وأبي يحمل اسم جدّه.. وهكذا قلت لها مرّة أخرى: «.. أتقزّز من الأسماء العصريّة». عضّت على أصبعها. وكمن يفكّر في حلّ خطير، قالت: «وإن كان المولود بنتاً..». «نعم! وإن كان بنتاً». قلتها بفتور وكنت كالّذي نسي أداء ثمن ركوب الحافلة وقد ضبطه المراقب. «.. سنسمّيها.. دعد.. خولة.. ناصرة.. زينب.. ياه! لن أنتهي أبداً من السّرد.. اللاّئحة طويلة.. ولن توافقي أبداً!» في الحقيقة (وهذا اعتراف جزئي منّي) فشلنا معاً في تحديد جنس المولود وحتّى اسمه... وبحركة مباغتة قمت من المكان ـ الزّاوية الّذي أجلس فيه. خطوت بضع خطوات.. كانت هي تسرع في مشيتها.. وتمرّر ـ من حين لآخر ـ يدها اليسرى على تنّورتها الرّماديّة ـ سلمت يسراها! حاولت اللّحاق بها لأقول لها «إنّي اخترت(..) اسماً للمولود الجديد». لكن كانت ثمّة عربة ابتلعتها، وناس تنزل وناس تصعد وناس تهرول. تمنّيت أن ألحق بها بالرغم من أنّه لم يكن في نيّتي أن أركب قطار البيضاء.. لكن تعبي المزمن جعلني أغيّر رأيي وأعزف عن تغيير الاتّجاه أخيراً.

القنيطرة ـ المغرب

الحَيْـلُ

خيري عبد الجواد

كان راجعاً من عمله وقت الظّهيرة حين دهمه الكلب. هل فوجئ بما حدث؟ نعم، فقد كان بحكم عاداته اليوميّة يمرّ عليه صباحاً ومساءً فيجده جالساً رابضاً بشكله المهيب أمام بيت الجيران. سنون طويلة مرّت على جلوسه هكذا منذ أن جاء إلى الحارة جرواً صغيراً يتمسّح بأرجل المارّة فيعاملونه بحنوّ كطفل من حقّه الحصول على بعض التّدليل حتّى يبلغ ويكبر. مَنْ الّذي أتى به؟ ومن أين جاء؟ لا أحد يدري، بل يعتقد البعض أنّه ولد في الحارة من أمّ وأب كانا يعيشان فيها، في هذا البيت تحديداً، وأنّ هذا الكلب هو نتاج حادثة شهيرة يعرفها الكبار وكانوا وقتها صغاراً. فقد رأوا الأمّ تعوي وتنبح، وحين ذهبوا إليها وتجمّعوا حولها لمعرفة السّبب شاهدوا الأمّ تخرج من المنزل وقد التصقت مؤخّرتها بمؤخّرة أحد الكلاب الغريبة عن الحارة، بينما الكلب الآخر ـ زوجها ـ يعضّ ويخمش بأظافره. كانت جُرْسة وقف الجميع يتفرّجون عليها بسعادة غامرة، والكلبة «القامطة» على الكلب تجهد في التخلّص منه حتّى نجحت أخيراً. فصفّق الجميع وهلّلوا، بينما انسحب الكلب الزّوج خارجاً من الحارة ولم يره أحد بعدها.

* * *

نما الكلب وكبر وأصبح شكله مهيباً، وألفه الجميع ولم يكن ينبح إلاّ على وافد غريب. وأمّا هذه المرّة فحين رآه وقف فجأة، ولمّا اقترب منه كعادته قطع عليه الطّريق متحفّزاً، ودون أن يمهله قفز قفزة واحدة ناحية ساقه اليسرى وأمسك بها. دهمته المفاجأة، ولم يبد أيّة حركة وفي ظنّه أنّها مداعَبة ثقيلة. لكنّه أطبق بفكّيه على السّاق الّتي حاول شدّها فتمزّق البنطلون وأفلتت السّاق للحظة، لكن الأنياب سرعان ما أطبقت مرّة أخرى وانغرزت في اللّحم بينما كانت زمجرة الكلب المكتومة تتحوّل إلى زئير، وعيناه تبرقان باحمرار مخيف. وشعر بألم وسخونة يجتاحان جسده، فصرخ وشدّ بقوّة فتحرّرت ساقه. ركع على الأرض يتحسّسها وامتلأت أصابعه بالدّماء. نظر إلى الكلب فوجده يتحفّز مرّة أخرى للوثوب، فالتقط حجراً أشهره في يده وأخذ يتراجع بظهره في بطء بينما عيناه مثبتتان على الكلب الّذي كان يتراجع هو أيضاً.. حتّى دخلا كلٌّ إلى مسكنه.

* * *

حين شمّر كانت مِزَق البنطلون غارقة بالدّماء. وحين رأت زوجته ذلك صرخت وخبطت بكفّ يدها على صدرها وجرت. أحضرت ماءً